تذكر كتب السيرة والتاريخ: أنه ﷺ وصل إلى مدينة بُصرى - حوران سورية - مرتين، في رحلتين تجاريتين:

الأولى: في صحبة عمّه أبي طالب، وكان عمره اثنتي عشرة سنة.

والثانية: خرج في تجارة خديجة، مع مولاها ميسرة.

وفي المرتين يلتقي راهباً نصرانياً.. يرى صفة النبي موجودة في كتابهم.

قلتُ: أرجح أن القصتين موضوعتان، لا يصح لهما سندٌ ولامتن. وغرض الوضع: هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ على لسان عيسى عليه السلام: يريدون أن يقولوا: إن صفة النبي الجسميّة المحسوسة موجودة في كتب النصارى، ويعرفها رهبانهم وعلماؤهم..

والقصة الأولى رواها ابن هشام؛ عن ابن إسحاق بدون إسناد. وابن إسحاق يروي القصة، وهو يرى أنها موضوعة؛ لأنه كان يكثر معقباً على بعض أجزاء القصة (فيما يزعمون)، وهذا التعبير يستعمله رواة الأخبار لتبرئة أنفسهم من مسؤولية رواية الخبر، إذا رأى فيه القارئ كذباً.

وقد روى القصة: الترمذي (5/ 590) بسند قال: إنه حسن غريب.

ورواه الحاكم، وصححه.

ولكن الذهبي قال: أظنه موضوعاً، وبعضه باطل..

ووصفت الرواية بأنها منكرة.. لأن الرواية تذكر أبا بكر الصديق، وكان ابن عشر سنين، وذكر فيها بلال بن رباح، ولم يكن قد وُلد بَعْدُ.. ولم ترو القصة عن أبي طالب، ولم يحاجج بها قريشاً.. ويُقال: إنَّ بحيرى الراهب حذره من يهود، ونصحه بالعودة إلى مكة.. ومع ذلك سمح أبو طالب لابن أخيه أن يسافر مرة أخرى إلى الشام في تجارة خديجة..

وراوي القصة أبو موسى الأشعري، وهو يماني، تأخر إسلامه، وحق القصة أن يرويها صحابي مكي.. وأبو موسى صحابي، لم يكذب، ولكن قد يُكذب عليه..

والقصة مليئة بالتناقضات، فهي تقول: كانت تظلله غمامة، ومع ذلك كان يجلس في ظل شجرة. فكيف تحجب الشمس غمامة، ويكون للشجرة ظلٌّ..

وقد اختاروا بُصرى لتكون مسرحاً للقصة؛ لأنها كانت في العهد الروماني كرسياً أسقفياً هاماً؛ أي: كانت مركزاً من مراكز النصرانية، والرهبنة.. وبحيرى الراهب، مجهول، لا تعرفه كتب النصارى مع أنه موصوف بأنه كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية.. وقد أخذت المصادر المسيحية ترجمته مما رواه العرب عنه..

قلتُ: إنني لا أنفي وجود علاقة تجارية بين العرب، وبين بُصرى، ولكنني أنفي أن يكون (محمد) قد وصل إلى بصرى تاجراً. مع أنني أرجح، لو أن محمداً جاء إلى الشام تاجراً، أن تكون تجارته مع أهل غزة.. لأن المعاهدة بين قريش والروم كانت تنص على الوصول إلى غزة.. وقد توفي هاشم في غزة، وفي السنة السادسة من الهجرة وُجد أبو سفيان في غزة للتجارة..

أما الرحلة الثالثة إلى بلاد الشام، فهي رحلة ثابتة؛ لأنها وصلتنا بالسند العالي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنها رحلة «الإسراء» من مكة إلى القدس، ونحن نعتقد أن الرحلة كانت بالجسد والروح معاً، ولا تسأل كيف ذلك، فقدرة الله ليس لها حدود، وإذا صدقنا أن الإنسان وصل إلى القمر، وإلى المريخ، فلماذا لا نصدق أن النبي محمداً وصل إلى المسجد الأقصى، وعاد إلى مكة في ليلة واحدة؟

ويقدر زمن الإسراء سنة 621 م، قبل الهجرة بثمانية أشهر[1].

---

(1) يُرجح أن وقت الإسراء كان في السنوات التي احتلّ فيها الفرس القدس ما بين سنة (611 ـ 628م)، وساعدهم اليهود في ذلك، وقتلوا آلافاً من النصارى، وهدموا كنيسة القيامة. وقد ذكر الله هزيمة الروم في «سورة الروم»، وأخبر أن الروم سوف يغلبون الفرس بعد بضع سنين، وتمّ ذلك بإذن الله. وجاء قيصر الروم هرقل من حمص إلى القدس ماشياً، شكراً لله على النصر، وكان ذلك في شهر =

. . ومما يدل على وصول النبيّ محمد إلى المسجد الأقصى: الآثار التي تركها في تلك الليلة، في جنبات المسجد الأقصى، ومنها: حائط البراق وباب البراق؛ حيث ربط النبيُّ ﷺ «البراق». . هذا الجدار الذي سيطر عليه اليهود، وادعوه لأنفسهم لطمس الآثار النبويّة، ومنها ما تناقلته الأخبار بوجود أثر قدم النبي في الصخرة. ويمكن أن نضيف إلى الآثار النبويّة في الشام رسالته إلى هرقل قيصر الروم في السنة السادسة من الهجرة، أو أول السابعة سنة 629م، فجاءَته الرسالة[1] وهو بالقدس.

ويمكن أن نعدّ من رحلات رسول الله إلى الشام، رحلته إلى تبوك (غزوة تبوك)؛ فإنها تعدُّ من بلاد الشام.

قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: أما حدُّ الشام، فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها، فمن جبلي طيّئ من نحو القبلة (مدينة حائل في السعودية) إلى بحر الروم (البحر المتوسط)، وما بشأمة ذلك من البلاد. وطولها من الفرات إلى العريش نحو شهر، وعرضها نحو عشرين يوماً.

وكانت غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة. وقد وفد عليه صاحب العقبة يوحنا بن رؤبة، وصالحه على جزية سنوية، ثم أهدى النبيَّ بغلة بيضاء، فأعجبت رسولَ الله، فأهدى إليه رسولُ الله بردةً من بُرده[2].

= أيلول، أو منتصفه حيث عيد الصليب. وإسراء النبي إلى القدس في هذا الوقت فيه تحدّ للفرس عبدة النار، وتحدّ لليهود الذين تحالفوا معهم. . وفيه إغاظة لليهود؛ لأنهم كرهوا بعثة النبي محمد؛ لكونه من بني إسماعيل، وإسماعيل عندهم محروم من ميراث أبيه إبراهيم في النبوة. وذكر القرآن ذلك بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

(1) نقل ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (جـ1/ 44): أن الكتاب النبوي إلى هرقل، كان موجوداً عند ملوك إسبانيا، وهم من سلالة هرقل إلى زمنه، وقد توفي ابن حجر سنة 825هـ. وتعقب الكتاني في كتاب «التراتيب الإدارية» (جـ1/ 156) أخبار هذا الكتاب، وتوصل إلى أن الكتاب كان موجوداً محفوظاً عند ملوك الإسبان، حتى القرن الحادي عشر، وانقطع خبره بعد خروج العرب من الأندلس.

(2) رجحتُ في كتابي «قصة بانت سعادُ» أن البردةِ التي كان خلفاء بني العباس يلبسونها، هي هذه البردة، حصل عليها العباسيون عندما كانوا مختبئين في تلك الديار. وليست بُردة كعب بن زهير التي يُقال: إن رسول الله أهداها له بعد سماع قصيدته؛ ذلك أن قصة كعب بن زهير وقصة قصيدته ليس لها سند صحيح، ولم يُروَ أن خلفاء بني أمية كانوا يلبسون بردةً. . والله أعلم.

• ونزيد على ما كتبناه في رحلة رسول الله ليلة الإسراء إلى القدس: أن ما تشير إليه هذه الرحلة وتدلُّ عليه، أن المسجد الأقصى من جزيرة العرب، والمراد ما حول المسجد الأقصى، وهو الشام؛ حيث وجَّه المسلمين إلى وجوب فتح الشام ونشْر الدعوى الإسلاميّة فيه؛ لأن سكانه من العرب، ولأن أرضه من جزيرة العرب، وقد جاء الخطاب الأول موجهاً إلى الناطقين بالعربية في أرض عربية؛ لأن لسان النبي عربي، وكتابه عربيّ. والشام مشمول بالحديث: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»، والمقصود هنا ـ والله أعلم ـ لا يكون في جزيرة العرب ـ ومنها الشام ـ سلطان إلا لدين واحد وهو الإسلام. أما وجود غير المسلمين بوصفهم معاهدين، وأهل ذمة، فهذا لا ينقض نصّ الحديث. فيجوز للنصارى أن يقيموا في جزيرة العرب ـ ما عدا أرض الحرمين ـ، ولكنهم يقيمون بدون دولة وسلطان. والله أعلم.